بطل بلاط الشهداء

عبدالرحمن الغافقى

obeikandl.com

عبدالرحمن الغافقي

بطل بلاط الشهداء

ما أكثر الأحداث التى مرت بالأمة الإسلامية فى مختلف العصور!

وما أكثر الصور المشرقة التى مرت بهذا التاريخ! وما أجدرنا اليوم أن نستعيدها لنرى كيف حفر أبطال الإسلام بأظافرهم وسط الصخور ليكونوا أمجاداً ، وليحققوا انتصارات ، ويجعلوا كلمة الله هى العليا وكلمة ما دونه هى السفلى !

وكثيراً ما يستغرقنى هذا التاريخ ، وأتوقف أمامه كثيراً ، وأنا أشاهد من خلاله تطورات أمتنا الإسلامية عندما كانت تقف عند القمة ، وعندما تنحدر نحو السفح ، وهى تبنى حضارات ، وهى تكافح من أجل حريتها واستقلالها. وما أكثر عبرَ التاريخ!

المهم أن نعى ونفهم عظات التاريخ؛ حتى لا تتكرر أخطاء الماضى، ونستفيد من دروسه؛ لأن الإنسان لا يعيش كما يقولون إلا الماضى والمستقبل؛ لأن الحاضر مجرد لحظة عابرة سرعان ما

obeikandl.com

تصبح ماضيًا، أى تاريخًا.

وبطلنا الذى سوف نسوق قصة كفاحه وجهاده العظيم هو عبدالرحمن الغافقى ، إنسان تربى على مائدة التابعين ، وتعلم على يد ابن عمر رضى الله عنه ، وتفتحت عيناه على واقع مشرق، فهوى يرى الأمة الإسلامية قد حققت انتصارات تلو انتصارات، فقد تغلبوا على قياصرة روما وأكاسرة الفرس ، وورثوا ملك كسرى وإمبراطورية قيصر ، ونور الإسلام أضاء الدنيا بتعاليمه وقيمه وسمو غاياته ، لا تستطيع قوة أن توقف زحفه الساحق.

تاريخ عظيم مجيد يسطره أبطال الأمة الإسلامية فى كل مكان.

فها هو عقبة بن نافع بعد أن وصل بجيوشه إلى شاطئ الأطلنطى، يخوض بفرسه مياه المحيط ، ويشخص ببصره إلى السماء قائلاً:

«اللهم إنى لم أخرج بطرًا ولا أشرًا. وإنك لتعلم أنى أطلب السبب الذى طلبه عبدك ذو القرنين ، وهو أن تُعبَد ولا يُشرَك بك. اللهم لو كنت أعلم أن وراء هذا البحر أرضًا لخضته فى سبيلك».

ولكن انتصارات عقبة بن نافع سرعان ما انحسرت عندما

أصيب الجيش الإسلامى بنكسة ارتد على أثرها إلى برقة ، واستشهد عقبة. ولكن سرعان ما استرد المسلمون ما فقدوه بعد ذلك، وتطلعت أحلامهم إلى الشاطئ الآخر .. إلى أوربا ، حيث استطاع موسى بن نصير وقائده الجسور طارق بن زياد فرض السيطرة الإسلامية على الأندلس نفسها، وردد الزمان كلمات طارق وهو يحرق سفنه؛ حتى يتجل جنوده للقتال ، ولا يبقى أمامهم إلا الفوز أو الشهادة ، وقال كلماته الخالدة: «أين المفر؟ العدو أمامكم والبحر من ورائكم».

كل هذا وعاه عبدالرحمن الغافقى ، وكانت من أمانيه أن يمتد الإسلام ، وينشر نوره عبر أوربا ، وأن يضم فرنسا وغيرها من دول أوربا إلى الإسلام ، بل كان يتمنى نفس الحلم الذى كان يحلم به موسى بن نصير أن يصل إلى مقر الخلافة فى دمشق عن طريق أوربا بعد أن يضم فرنسا وإيطاليا، ويعبر مضيق الدردنيل إلى الشام فدمشق.

طموحات تصل إلى حد الخيال ، ولكن الإيمان فى الأعماق ، والهدف المحدد يقصران الطريق لتحقيق الأمال التى تصبح بعد ذلك فى دائرة الواقع المحسوس.

وقرر عبدالرحمن أن يذهب إلى الأندلس ليلعب دوراً مهما

وبارزا فى تاريخ الإسلام.

وجد عبد الرحمن الغافقى أن مستقبله السياسى على أرض الأندلس ، وأنه من الممكن أن يؤدى أدواراً بارزة فى خدمة دينه ، فهو إنسان حنكته الحياة ، وخبراته العسكرية تؤهله لأن يقدم خدماته فى سبيل العقيدة ، ووجد أن هذا الميدان يمكن أن يؤتى ثماره لو قام بدور فى اتساع رقعة الإسلام وتحقيق حلمه أن يمتد الإسلام إلى ما وراء جبال البرانس ، إلى فرنسا التى كانت تسمى بلاد «الغال» ، وما وراءها.

وقد أعجبه شخصية «السمح بن مالك الخولانى» الذى تقلَّد أمور الأندلس ، وأعاد إليها وجهها الإسلامى المشرق، بعد أن قضى على الخلافات القبلية والفتن التى كانت قد استشرت فى الأندلس. إنه يريد أن يجمع الشمل؛ حتى يتمكن من أن يعيد أمجاد الإسلام فى خوض المعارك فى سبيل العقيدة. وقد حقق بالفعل انتصارات مؤزرة عندما تقدَّمَ بجيوشه ليستولى على بعض المدن المهمة ، ويقيم ويدعم الحكم الإسلامى. وكان أعظم انتصاراته عندما ضم (اكتانيا) رغم عنف مقاومة العدو ، إلا أنه استشهد عندما تقدم نحو «تولوشه» واضطر الجيش الإسلامى إلى الانسحاب.

وكان عبدالرحمن الغافقى أحد جنود هذا البطل الذى دفعته تطلعاته الشجاعة إلى أن يمد نور الإسلام إلى أقصى مدى. وشاهد معه تلك المعارك التى سقط شهيدًا فى إحداها ، وقرر فيما بينه وبين نفسه أن ينتقم لقائده ، وأن يلقن أعداء الإسلام درسا لا يمكن أن ينسوه ، وأن يتابع الغزو مهما كانت أشواك الطريق؛ ليضم إلى الأندلس جنوب فرنسا ، ثم يواصل زحفه إلى أكثر ما يستطيع أن يضمه إلى رقعة الإسلام.

وكان عبدالرحمن الغافقى يمتاز بأنه على درجة عالية من التسامح الدينى كما يمتاز بأخلاقياته ، فجنوده كلهم سواء ، يستوى العربى مع البربرى. وأثناء ولايته أيضًا كان يعامل رعاياه المسيحين بما يتفق مع تعاليم الإسلام التى تعطى لكل ذمى حقوقه كاملة ، فلا اضطهاد ولا إرغام لأحد على ترك دينه .

وقد استعد البطل لملاقاة الفرنجة ، وكوَّن جيشًا قدره البعض بأربعمائة ألف مقاتل .

وكان يهدف إلى اجتياح بلاد الغال (فرنسا) .

وفى صيف عام ١١٤هـ (٧٣٢م) خرج من «نيلونه» فى محاولة لاجتياح ولاية (أكتانيا)، وتحقق له هذا النصر، وسقطت فى أيدى المسلمين ، ثم واصل زحفه الساحق، حتى أصبحت باريس على بعد مائة ميل.

obeikandl.com

واستطاع أن يحتل نصف فرنسا الجنوبى من الشرق إلى الغرب.

وقد وصف المؤرخ الشهير جيبون هذه الغزوة بقوله:

«وامتد خط الظفر مدى ألف ميل من صخرة طارق إلى ضفاف اللوار. وقد كان اقتحام مثل هذه المساحة يحمل العرب إلى حدود بولونيا وربى إيقوسيا، فليس الراين بأمنع من النيل أو الفرات. ولعل أسطولاً عربيا كان يصل إلى مصب التيمز دون معركة بحرية، وربما كانت أحكام القرآن تُدرس الآن فى معاهد أكسفورد. وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحى والرسالة».

وقد شعر «شارل مارتل» بخطورة الزحف الإسلامى، وكان قد أعد جيشًا ضخمًا مكونًا من الألمان والفرنسيين أو الغاليين، وخاصة بعد أن استنجد به دوق «أوتو». وتقدم بهذا الجيش الكبير لملاقاة المسلمين بعد أن عبر نهر اللوار.

ويقول المؤرخون: إن الجيش الإسلامى كان قد هزته انتصاراته المتوالية، كما أنه أثقل بكثرة الغنائم التى استولى عليها أثناء زحفه فى بلاد الغال، وأنه من ثم كان حريصًا على هذه

الغنائم؛ مما جعل حماسه لحرب جديدة يفتر ويقل الدافع إليه بعد أن ظهرت بعض الخلافات بين قادة الجيش من عرب وبربر ، وكان من الصعب على عبدالرحمن الغافقى أن يطلب من جنوده التخلص من الغنائم والتفرغ للحرب، كما أن الوقت لم يكن سانحًا لتلك النزاعات بين البربر والعرب. وفى ظل الظروف بين جيش مُتخَم بالغنائم وجيش يفوقه عددًا ولا تثقله هذه القيود كان معركة شمال «بواتيه».

وقد استمرت المعركة ثمانية أيام. ويقول الرواة إن أحد قادة الفرنجة أراد أن يثير الفوضى بين جيش المسلمين ، فهاجم مؤخرة الجيش الإسلامى الذى يضم الغنائم ، وقد أشيع بين الجنود أن غنائمهم قد وقعت تحت سنابك جيوش الأعداء، فحاول البعض الرجوع إلى الخلف للدفاع عن هذه الغنائم؛ مما سبب الارتباك بين جيوش المسلمين ، وأصبح من العسير على عبدالرحمن الغافقى أن يعيد الجيش إلى تماسكه ، فقد دبت فيه الفوضى؛ مما أتاح للعدو فرصة أن يحقق انتصاراً عليه. ورغم الشجاعة التى بدأت فى مواجهة الفرنجة واستبسال قائدهم فى القتال ومحاولة عدم التزحزح ، فإن القائد العظيم ، وقد شاهد ما شاهد من الارتباك بين جنوده عندما حاول أن يعيد تنظيم جيشه، أصابه سهم، فسقط شهيداً.

وما كاد يتناهى إلى سمع الجيش الإسلامى نبأ استشهاد قائده حتى تخاذلت قواه ، وحاول البعض أن ينجو ببعض الغنائم؛ مما أدى إلى فشل وارتباك فى القيادة ، ومن ثم تحقق نصر الأعداء ، وتوقف الزحف الإسلامى.

ويقول الدكتور عبدالعظيم رمضان فى كتابه «الصراع بين العرب وأوربا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية»:

من الثابت أن شارل مارتيل لم يتبع الجيش الإسلامى ، خشية أن تكون وراء انسحابه حيلة أو خدعة ، بل اكتفى من الغنيمة بالنصر الذى حققه فى بواتيه، وعاد إلى الشمال معتزا بهذا الانتصار. وبذلك فإن النتائج التى أسفرت عنها هذه الهزيمة لم تخرج عن النتائج التى أسفرت عنها الهزيمتان السابقتان.

وهذا ما يعترف به مؤرخ فرنسى آخر هو «چوستاف لوبون» فيقول:

«إنه بعد بواتيه لم يستطع شارل مارتل طرد العرب من أى مدينة احتلوها عسكريا ، واضطر إلى التقهقر تاركًا لهم ما استولوا عليه من البلدان.

والنتيجة المهمة الوحيدة التى أسفر عنها انتصاره ، هى أنه جعل العرب أقل جرأة على غزو شمال فرنسا. ومثل هذه النتيجة ، وإن

obeikandi.com

كانت مفيدة ، إلا أنها لا تفى للتضخيم فى أهمية الانتصار الذى حققه هذا القائد».

وهذا هو التقييم الصحيح لموقعة بواتيه.

وإذا كان هناك مبرر قومى للمؤرخين الأوربيين الذين بالغوا فى تقدير أهمية انتصارات شارل مارتل ، فقد كان أجدر بالمؤرخين المؤرخين العرب ألا ينزلقوا إلى هذه المبالغة.

وفى الواقع إن الوجود العربى فى فرنسا استمر بعد هذا الموقعة لمدة تزيد على قرنين من الزمان؛ مما يبين تمامًا فساد تلك المبالغات، بل امتد بعد ذلك إلى إيطاليا وسويسرا.

ويقول الدكتور عبدالعظيم رمضان أيضًا معللاً هذه الهزيمة الإسلامية فى بواتيه، أو بلاط الشهداء بقوله:

« أما السبب الأساسى فيتمثل فى الفتن والاضطرابات الداخلية التى حلت بالأندلس والمغرب ، واستنزفت قوى العرب ، وصرف اهتمامهم عن استمرار الفتوح فى أوربا بالمعدل الذى كانت تسير به، ثم توقفت تمامًا لتبدأ عملية الانحسار. وهذا السبب هو الذى شجع شارل مارتل على معاودة الهجوم بعد ذلك واسترداد بعض ما فتحه العرب.

ثم استكمل ذلك ابنه شارلمان. ولذلك يذكر المؤرخ المستشرق (رينو) أن فتن العرب المستمرة قد خففت من خناق المسيحين فى الأندلس والمملكة الفرنجية ، وأنه لم يكن هناك من واقٍ لجنوبى فرنسا فى ذلك الوقت أحسن من وقوع العرب فى الخلافات فيما بينهم».

« كما يبرز حقيقة مهمة فى هذا الصدد ، فيقول إنه كان فى وسع العرب أن يفتحوا فرنسا عقب وفاة شارل مارتل سنة ٧٤١، وانشغال ابنه ببين فى توطيد ملكه فى شمال فرنسا ، فيجددوا حملاتهم على جنوبى فرنسا ، ويبلغوا فيها مرادهم. ولكن وقوع الشقاق بين العرب أنفسهم عاقهم عن كل عمل من هذا القبيل ».

وهذه صورة سريعة من هذه الموقعة التى يصورها المؤرخون الغربيون فى هالة عجيبة ، فيصورن فيها بطولة جيش شارل مارتل وكيف أنه استطاع أن يحمى أوربا المسيحية من همجية المسلمين. وهذا ضد ما يقوله ويعترف به المستشرقون المنصفون الذين يرون أن الإسلام كان نور هداية أضاءت لأوربا طريقها نحو الحضارة والمدنية والتقدم.

ولكن هزيمة المسلمين كان سببها انقسام المسلمين على أنفسهم. وهذه هى المأساة ، مأساة المسلمين فى كل العصور ، عندما يحول

عدم اتفاقهم إلى الإنطلاق نحو كل ما هو جدير بهم، وجدير بتاريخهم، وجدير بدينهم العظيم الذى رفعهم إلى قمة شامخة لم تكن تخطر ببال.

فالعيب دائمًا ليس فى الإسلام ، ولكن فى هؤلاء الذين يتركونه وراء ظهورهم طمعًا فى الدنيا ، أو مكسب أو عرض زائل.

***

obeikandl.com